عدن في ظل النجمة الحمراء

بقلم فرانك ميرميي
ترجمه جمال شحيد

كانت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية النظام الوحيد الذي انضوى فعلاً تحت لواء الماركسية في العالم العربي[1]، وطيلة وجودها القصير الذي امتد من عام 1967 إلى عام 1990، أصبحت قاعدة للنفوذ السوفيتي في المنطقة وعاصمة لحركات التحرير العربي، تحرير فلسطين وتحرير شبه الجزيرة العربية بخاصة، كما أصبحت ملاذاً للتنظيمات الشيوعية في الشرق الأوسط. وكانت عاصمتُها عدن، التي يربطها الغربيون بعفوية كبرى بأسطورة الشاعر الفرنسي رامبو أو بصورة المفكر بول نيزان الذي كتب «عدن - شبه الجزيرة العربية»، قد تخلّت عن وضعها كمنطقة حرّة، وأضحت مخبراً للتجربة الاشتراكية في أفقر بلد في شبه الجزيرة العربية. أجل، لقد ولّى زمن البضائع والرحّالة المتهافتين على الأرصفة البحرية المكتظة في حي «التواهي» حيث تنتظم الدكاكين المليئة بالمواد المعفيّة من الضرائب. لقد أتى زمن التأميمات والميليشيات الشعبية وتحرر المرأة والمساواة الظاهرية؛ وبوجيز العبارة أتى زمن النجمة الحمراء التي تشرف على ساحة الملكة اليزابيت سابقاً، وجعل شعار «لا صوت يعلو على صوت الحزب»، أي الحزب الاشتراكي اليمني، جعل أذان المؤذنين يخفت، حتى وإن اعتبر الإسلام كدين للدولة.

وفجأة خَبَتْ نيران الكوزوموبوليتية الاستعمارية، وعُتّم على مجتمع تميّز بهرميته الإثنية التي تجاذب فيها «السكان الأصليون» مع الدهماء، قبل الصوماليين، بينما بقي الأوروبيون غارقين في كابوس المدينة المناخي وقبعوا في نواديهم. وبعد رحيل الإنكليز استمر بعضهم هناك، منضوين في النوادي التي كانت تفتح أبوابها ابتداءً من الساعة 18، وتقدّم بيرة محلية اسمها «صيرة» ويُصنّعها معمل يديره الألمان الشرقيون استهدفته أولاً

(1) ما بين 1967 و1970 كان اسم اليمن الجنوبي «الجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية»، التي صارت عام 1970، بعد تبنّي الدستور الأول، «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية».

الكتائب الإسلامية التي قدمت لتحارب مع نظام الحكم في صنعاء انفصاليي الجنوب و«الكفار» الاشتراكيين أثناء حرب 1994[2].

خلال التسعينات من القرن العشرين، أصاب جو التحرر العالمي عدن عبر الماركسية التي تبنتها الدولة والتي قامت كنموذج معاكس للتيار المحافظ الاجتماعي والديني لجيل الآباء، وكان إعلان الموقف المناوئ للدين يتجلى دون أية مواربة من خلال ترك قناني البيرة الفارغة تتكاثر على طاولة البار ليس لإبراز شربها فقط بل لإبراز الكميات المشروبة[3].

وهكذا منع قانون العائلة الصادر عام 1974 تعدّد الزوجات، وكان من القوانين الأكثر تقدمية في العالم العربي، ومنح المرأة حقوقاً مهمة. في كانون الثاني 1981، أُجبر علي سالم البيض، نائب رئيس الوزراء وعضو في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني على الاستقالة من وظائفه لأنه كان متزوجاً من امرأتين، وكان الاختلاط بين الجنسين مرعياً في الأماكن العامة وفي أوساط الكوادر المهنية والحزبية، وكانت الميليشيات الشعبية تستقبل الفصائل النسائية في صفوفها، وكذلك الجيش والشرطة. في عام 1976، وفي ظل رئاسة سالم ربيع علي، نظمت مظاهرات كبرى في جميع المحافظات لإلغاء حجاب الوجه، واندلعت هذه المظاهرات في مناسبة اليوم العالمي للمرأة[4].

وما كان يُذهل المسافر القادم من صنعاء إلى مطار عدن، خلال الثمانينات من القرن العشرين، هو أن يرى نساء يرتدين القمصان والبناطيل ويضعن المسدسات في أحزمتهن، نساء بشعور متطايرة يقمن بتفتيش الحقائب. وظهرت التنورة القصيرة والبنطال في عدن، وانزاح المنديل عن الشعر، وشوهدت الفتيات مرتديات البيكيني مع الرجال في شاطئ «غولد مهر»، حيث كانت تلتقي كوادرُ الحزب والمهجَّرين من البلدان الصديقة، بينما كانت مكبرات الصوت تبثّ الأناشيد السوفيتية.

وكانت النقاشات داخل خلايا الحزب الاشتراكي اليمني توفّر انفتاحاً غير مسبوق على العالم ومثاقفةً ممركسة مثَّلت الجانب الآخر من التفرنج الذي بدأ في الفترة البريطانية. وكان الكتاب المقدس لدى المناضلين الشباب في اليمن وغيرها كتاب جورج بوليتزر «المبادئ الأولية للفلسفة»، ولكن بترجمة عربية. وكانت دور النشر اليسارية في بيروت تترجم إلى العربية أدبيات هذه الثقافة الأوروبية، المرادفة للتحديث والتحرير. ويذكر فواز طرابلسي في مذكراته - وكان المسؤول عن منظمة العمل الشيوعي في لبنان - أن فرعاً من جبهة التحرير الوطني في حضرموت، ذات الاتجاه الماركسي خصّص جزءاً من الأموال المسروقة بقوة السلاح من أحد

---

(2) في حرب أيار – تموز 1994، اشتبك انفصاليو الحزب الاشتراكي اليمني مع القوات الوحدوية التابعة لنظام الحكم في صنعاء، وبعد أن تحصّن الانفصاليون في عدن أعلنوا في 21 أيار 1994 إنشاء الجمهورية الديموقراطية اليمنية «الهشة» التي تزعّمها علي سالم البيض الذي وقّع اتفاقيات الوحدة عام 1990 مع علي عبد الله صالح، رئيس الجمهورية العربية اليمنية من عام 1978 حتى عام 1990، ثم أصبح رئيساً لليمن الموحد.

(3) حسب شهادة حبيب عبد الرب الذي أشركني في ذكرياته العدنية إبان عقد السبعينات من القرن العشرين.

(4) فواز طرابلسي: "وعود عدن"، بيروت، دار رياض الريس، 2000، ص87.

المصارف البريطانية، لشراء كتب ماركسية لينينية كُلّف طرابلسي بشرائها من بيروت[5].

وكانت الأممية تُعاش ثقافياً في اجتماعات الحزب، وتناقش فيها قضايا أفريقيا وآسيا والأمريكتين. وبفضل المنح الدراسية التي كانت تعطيها شتى البلدان الاشتراكية، ككوبا والاتحاد السوفييتي، درس عدد من الطلاب الشباب وأُعدّوا لتأهيل النخبة الجديدة في البلاد. وكانت مكافحة الأمية هي القضية الوطنية الكبرى في بلاد ورثت نظاماً تربوياً نخبوياً في عدن بقي جنينياً وبدائياً في المحميات السابقة. وكانت تعتمد على متطوعين شباب انخرطوا بحماس في حملات نقلتهم إلى المناطق النائية في البلاد. وكانت المشاركة الشعبية والتعبئة المستمرة، خلال السنوات الأولى للنظام، ناتجاً من نتاجات الأيديولوجيا الاشتراكية وشرعنةً لنظام الحكم الجديد، كما كانت وسيلة لجميع التيارات المتنافسة في الحزب الاشتراكي اليمني كي تشكّل قوّة داعمة لها.

في آب 1972، طالبت هذه الأيام السبعة المجيدة التي شهدت تظاهر آلاف الريفيين في شوارع عدن، طالبت الرئيس سالم ربيع علي بتأميم المساكن وبتخفيض جديد لرواتب الموظفين، ونظّم هذه المظاهرات التنظيم السياسي للجبهة الوطنية الذي حل محل الجبهة القومية أثناء المؤتمر الخامس الذي عُقد في آذار 1972، والذي اتخذ منحى ماركسياً ازداد تأكيداً[6]. وحرك هذه المظاهرات الرئيس ليضغط على سكان المدن وخصومه السياسيين في آن. وقدّم الكاتب العدني حبيب عبد الرب وصْفاً لها بتهكم لطيف، قال:

«كان صخب الأصوات الهادرة والحادة والراقصة يهزّ أركان مدينة وادعة وراضخة، ويغمرها خلافاً للعادة، فنزل المتظاهرون، الذين هاجمهم الحبور الثوري، إلى عدن من بطاح اليمن الجنوبي بشاحنات الحزب، فشُدهت العاصمة بهذه المسيرة الأولى والطويلة والمعلنة بمسرة. ووصل إليها متظاهرو الموجات الأولى قبل أسبوع، فأسكرتهم الحميّة. وهدرت الحناجر مطلقة عبارات مسجوعة، وقرر المتظاهرون في شعاراتهم أن حرق الملاءات النسائية كان واجباً وطنياً (كما لو أن الطقس لم يكن محرقاً)، وأن تخفيض الرواتب كان كذلك. وطلبوا من «الزعماء التاريخيين» الثلاثة التشدّد في الخط المعادي للرجعية، لأن الشعب «برمّته» ماركسي، كما هتفوا! [...] ثم أطلقوا الهتافات المنغومة التالية:

لا نبغي لا «الهيبي» ولا سروايل «قوائم الفيل»،
لا نعرف إن كان لابسها ذكراً أم أنثى.
لا نريد الخونة والرجعية.
شعبنا برمّته ماركسي»[7].

كانت مخلفات الحكم البريطاني، كالنوادي والفيلات والثكنات العسكرية والحدائق، عالقة بالمدينة، فأعطتها هذا الطابع الخاص جداً

---

(5) انظر كتابه: «صورة الفتى بالأحمر، أيام في السلم والحرب»، بيروت، دار رياض الريس، 1997، ص76.

(6) أصبح هذا التنظيم الحزب الاشتراكي اليمني، عام 1975، أثناء انعقاد المؤتمر السادس.

(7) حبيب عبد الرب: "الأميرة النافقة" (La Reine étripée)، باريس، لارماتان، 1998، ض13 – 14.

والفريد من نوعه، لو لم تشبْهُ مسحة من الانطواء الطوعي. وفعلاً كانت عدن عاصمة معزولة ومنكفئة على نفسها، علماً بأنها محصورة بين البحر والجبال، ولكنها أصبحت منقطعة عن باقي العالم بفعل سياسة أمنية تقنن بشدة منح تأشيرات السفر وتمنع الاتصال بالأجانب بموجب قانون صدر عام 1975. كان عجوز يمني في عيد الأضحى يبحث عن شاحنة لينقل عليها خروفه، دون جدوى، فقرر استيقاف أية سيارة مجاناً، فركب بسيارة شخص سوداني. فأوقفته الشرطة عند أحد حواجزها، فأمضى يومين في السجن لأنه تكلّم مع رجل أجنبي.

انكفأت عدن على منطقتها الخلفية، فأدارت ظهرها للبحر، ولم يعد ميناؤها يستقبل سوى بواخر البلدان الشقيقة، فانطوت المدينة على نفسها وانقطعت عن باقي العالم، ولكنها أصبحت معقلاً للعروبة والاشتراكية في بيئة معادية تحكمها الملكيات النفطية. لقد غادر الأجانب البلاد، وكذلك غادرها العسكريون والموظفون البريطانيون، ولكن غادرها أيضاً كبار التجار من أوروبا والهند الذين وقعوا ضحية قوانين التأميم التي صدرت عام 1969، فحلَّ محلهم المقاتلون والمناضلون التابعون للجبهة القومية، ومعظمهم أتوا من مناطق القبائل وتوازع المسؤولون فيلات النخبة الأوروبية القابعة على الشاطئ، في حين أن الريفيين أقاموا في مباني «المعلاّ» وراحوا يتخلصون تدريجياً من ثيابهم الريفية الزاهية.

عاصمة الشيوعيون العرب:

إن العلاقات التي نسجها المناضلون اليمنيون والفلسطينيون داخل حركة القوميين العرب إبان الستينات من القرن العشرين وأثناء معارك الدفاع عن جمهورية الشمال ومن أجل استقلال الجنوب، استمرت بعد تحقيق هذين الهدفين وحُلّ حركة القوميين العرب عام 1970، وكان جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ونايف حواتمة رئيس الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين، من مسؤولي حركة القوميين العرب التي قاتلت البريطانيين والسلاطين ما بين 1963 و1967، وكان مناضلو هذا التنظيم عماده الأساسي. في عام 1967 سافر الفلسطينيان جورج حبش وهاني الهندي مع اللبناني محسن إبراهيم إلى مدينة تعز سعياً للتوسط بين تياري الجبهة القومية ، وكان التيار الأول يؤيّد الاندماج مع جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل، وهي تنظيم مناوئ دعمه النظام الناصري، في حين كان التيار الثاني يقاومه[8]. ومن بين جميع الحركات المنبثقة عن حركة القوميين العرب وعن جبهة تحرير عمان والخليج العربي داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وحدها الجبهة القومية نجحت في استلام السلطة[9].

---

(8) Helen Lackner, P.D.R. Yemen, Outpost Of Socialist Development in Arabia, London, Ithaca Press, 1985, P. 43.

(9) هيلين لاكنر، المرجع المذكور، ص36.

خلال عشرين سنة، أي ما بين 1970 و1990، أصبحت عدن عاصمة الشيوعية العربية وقاعدة خلفية للفلسطينيين، وإذ يقع اليمن الجنوبي في أطراف العالم العربي، فقد تحوّل إلى حَرَم «تقدمي» لأنه كان يحظى بحماية سوفيتية، وهي عنصر استقرار لنظام تتهدده الصراعات القبلية والذي تعرّض لضربة قاضية أثناء النزاع العنيف بين تياري الحزب الاشتراكي اليمني عام 1986. صحيح أنه كان على هامش العالم، ولكنه احتل مركز الصدارة في العالم الشيوعي العربي، إذ كان بمثابة معقل وقاعدة لوجستية له في آن.

لقد استقبل اليمن الجنوبي الشيوعيين العراقيين الذين فرّوا من قمع نظام صدام حسين، والشيوعيين اللبنانيين ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان الذين قدموا إليه للتدريب أثناء الحرب اللبنانية (1975 - 1990). ولعب عدد من المسؤولين اللبنانيين والفلسطينيين، وبينهم جورج حبش ونايف حواتمة وكريم مروّة، ونديم عبد الصمد ومحسن إبراهيم وفواز طرابلسي دوراً مهماً في تأسيس الحزب الاشتراكي اليمني عام (1975)، المنحدر من الجبهة القومية والاتحاد الديموقراطي للشعب وحزب الطليعة الشعبي (البعث سابقا)[10]. وكانت العلاقات بين الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي في لبنان مع القادة اليمنيين الجنوبيين وطيدة جداً. وكان المسدس الشخصي لجورج حاوي، الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني، هدية من علي ناصر محمد رئيس اليمن الجنوبي، واستخدمت هذا المسدس (من ماركة ماكاروف) المقاومة سهى بشارة في عملية الاغتيال التي أقدمت عليها ضد رئيس الميليشيا المتحالفة مع إسرائيل في جنوب لبنان، انطون لحد[11]. وحاول جورج حاوي مع كثيرين التوسط بين الخصمين المتنازعين على رئاسة الحزب الاشتراكي اليمني، عبد الفتاح اسماعيل وعلي ناصر محمد. فسافر من دمشق إلى عدن عام 1985 ليقنع علي ناصر محمد بألا يعدم عبد الفتاح اسماعيل، وبأن يرسله إلى موسكو، على الرغم من المعارضة الأولية للسفير الروسي الذي كان يدافع عن أحقية هذا الأخير في السلطة[12]. والتمس تيارا الحزب الاشتراكي اليمني من قادة الحزب الشيوعي اللبناني والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (جورج حبش) والجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين (نايف حواتمة) التوسط بينهما للحؤول دون اللجوء إلى العنف، لا بل طار جورج حاوي إلى موسكو ليقنع عبد الفتاح إسماعيل دون جدوى بالعودة إلى عدن وبأن يصبح فاعلاً في النزاع الوشيك[13]. وقاد مهمة الإمكانية الأخيرة مع نديم عبد الصمد، فتوجه إلى عدن محاولاً إقناع قادة الحزب الاشتراكي اليمني بإرجاء اجتماع المكتب السياسي المقرر في 13 كانون الثاني 1986. وباءت جهوده بالفشل لأنها لم تتمكن من إخماد ثورة العنف

---

(10) انظر كتاب كريم مروّة: "كريم مروّة يتذكر. في ما يشابه السيرة، حوارات مع صقر أبو فخر"، دمشق، دار المدى، 2002، ص311 – 312.

(11) جورج حاوي: "الحرب والمقاومة والحزب"، بيروت، دار النهار، 2005، ص35.

(12) جورج حاوي: المرجع المذكور، ص128 – 129.

(13) جورج حاوي: المرجع المذكور، ص130 – 131.

التي أدمت العاصمة لمدة 10 أيام تقريباً، مما أنذر ببداية النهاية جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، وسرّع في عملية التوحيد مع اليمن الشمالي.

تضامنات تقدّمية عربية:

كان نظام اليمن الجنوبي يكلف عدداً من المهندسين المعماريين المناضلين الشيوعيين اللبنانيين بإنجاز بعض المشاريع ومنها بناء روك أوتيل في حي التهاوي (عدن) وتصميم مخطط مديني للمكّلا أو تشييد جامعة عدن. وفي روك أوتيل الذي أصبح الآن فندق 26 سبتمبر كان يجتمع حاملو المسدسات ومنظرو الثورة العالمية. وجاء بعضهم ليعطوا الرفاق اليمنيين دروساً في الاشتراكية العلمية، وقدم غيرهم لإعداد العمليات «الثورية» الوشيكة. ووُضعت البرامج الجامعية بمساعدة الزعيم والمثقف الشيوعي اللبناني حسين مروّة، وساهم المربون اللبنانيون في وضع البرامج المدرسية. ولكن عدن لم تكن معبداً عصياً على الانتهاك؛ ففي حزيران 1976 اغتيل شيوعي كردي عراقي، كان أستاذاً في جامعة عدن، وأقدم على قتله في وضح النهار قطاع طرق متنكرون بثياب دبلوماسيين تابعين للناظم البعثي، فأوقفتهم الشرطة في سفارتهم، فانتقم النظام العراقي بتوقيف طلاب اليمن الجنوبي وطردهم من العراق[14].

وساهم عام 1982 عدد من الشعراء الشيوعيين العراقيين، ومنهم سعدي يوسف، في تأسيس دار نشر «الهمداني». وقبل ذلك بسنة تمنّى سعدي يوسف لو يقام تمثال للشاعر رامبو في عدن يحجّ إليه الشعراء «سنوياً ويضعون تحت قدميه قرابينهم من الخمور والورود»[15]. وفي السنة نفسها حاول سعدي يوسف، بصحبة مواطنه العراقي شوقي عبد الأمير والشاعر الفرنسي غولفيك، إقناع رئيس اليمن الجنوبي علي ناصر محمد بإطلاق اسم رامبو على شارع في حي التواهي، بعد بحث غير مثمر عن منزله في عدن. وبدلاً من ذلك، قبل الرئيس باستبدال اسم شاطئ غولد مهر وتحويله إلى شاطئ أرتور رامبو، وبقي هذا القرار نظرياً وصار نسياً منسياً الآن[16]. وكان مطعم «نشوان» تملكه الجبهة الشعبية لتحرير فلطسين، وكان الطبّاخون والخدم فيه لبنانيين؛ وكان يتردد إليه عدد من المناضلين اليساريين القادمين من جنوب لبنان. أما حصة الحزب الشيوعي العراقي فتمثلت في إدارة ملهى ليلي في عدن[17].

وكان اليمن الجنوبي قد أصبح «معقلاً ثورياً»؛ وفي سنوات قيامه الأولى، كانت تتهدده الجمهورية العربية اليمنية وحلفاؤها في شبه الجزيرة العربية الذين يمثلون «المعسكر الرجعي» المتحالف مع الولايات المتحدة.

---

(14) هيلين لاكنر، المرجع المذكور، ص84.

(15) Lucine Taminian, «Rimbaud's House in Aden, Yemen: Giving Voice (S) to the Silent Poet», *Cultural Anthropology*, Vol. 13, n 4, 1998, p. 464.

(16) لوسيان تامنيان، المرجع المذكور، ص474.

(17) فواز طرابلسي، "وعود عدن"، مرجع سابق، ص46، و89.

فدافع نظام عدن عن نفسه بتسليح حركات المعارضة المناوئة للسلطات القائمة لاسيما لدى جيرانه المباشرين، أي الجمهورية العربية اليمنية في الشمال، وسلطنة عمان في الشرق. وكانت قاعدة الجبهة الوطنية الديموقراطية التي اعتمدت الكفاح المسلح في الشمال موجودة في عدن. وكان مناضلوها مرتبطين عضوياً بالحزب الاشتراكي اليمني، بشكل سري في البداية لأن هذه الجبهة حافظت لمدة طويلة على رواية تقول إنها مؤلفة من تنظيمات مختلفة.

وكان اليمن الجنوبي يستقبل المناضلين القادمين من شبه الجزيرة العربية برمتها لينظمّوا إلى ميليشيا «ظفار» التي كان لها في البداية هدف قومي متمثل أساساً بجبهة تحرير ظفار التي أخذت فيما بعد طابعاً أيديولوجياً وطموحاً جغرافياً متنامياً بتبنيها الماركسية وبتوسعها الطموح إلى شبه الجزيرة العربية بكاملها. وبالتالي غيرت اسمها بعد التحول الثوري لعام 1968، ليصبح «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل»[18]. ومع أن حرب العصابات انتهت عام 1975، كانت ملصقات مناضلات ظفار هؤلاء ذوي البناطيل الكاكية القصيرة والشعر المجعد تزيّن غرف المناضلين الغربيين في الثمانينات من القرن العشرين. ونجد هذه الصورة على غلاف الترجمة الفرنسية لرواية المصري صنع الله إبراهيم التي من خلال شخصية وردة، وهو الاسم الذي أطلق على عنوان الرواية، أراد الكاتب أن يُشيد بأولئك النساء المناضلات وبحرب العصابات في ظفار.

مفترق طرق أمام الثورة العالمية:

منذ 1970، جعل الصعود المحتمل لحركات المقاومة الفلسطينية والشطط الشديد الذي حل بأقصى اليسار الأوروبي الذي تبنّى القضية المناوئة للصهيونية، جعل من عدن محطة ومفترق طرق لعدد من هذه التنظيمات. إن علاقات مجموعة «المجال الخارجي» لوديع حداد الذي استقلّ عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بالمناضلين الألمان المنحدرين من فصيل الجيش الأحمر ومن حركة 2 حزيران ومن الخلايا الثورية، وأيضاً بالجيش الأحمر الياباني، وبمنظمة «إيتا» الباسكية، وبمجموعات دانمركية وإيطالية، أتاحت الفرصة لجميع هذه التنظيمات أن تحط الرحال في المعبد الجنوبي اليمني حيث كان وديع حداد يعمل تقريباً على هواه. وانزعجت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من علاقاته المميزة مع نظام عدن، واعتبرتها انتقاصاً لامتيازاتها وللنفوذ الذي يمكن أن تمارسه على «المجال الخارجي»وعلى رفاق الحزب الاشتراكي اليمني. ففُصل وديع حداد رسمياً من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في شباط 1976.

بدأ وديع حداد نشاطاته في عدن في بداية عام 1970، وخُصصت له فيللا في حي خورمكسر. وكانت هذه المدينة مركزية بالنسبة لفعاليات مجموعته ولمركز التدريب الذي أقيم فيها. ومع أن معسكر جعارعُرف باسم

(18) انظر فواز طرابلسي، "صورة الفتى الأحمر.."، مرجع سابق، ص74.

معسكر عدن، إلا أنه كان المعسكر الأهم. ويقع جعار في منطقة أبين ويبعد حوالي 70 كلم شرق عدن. وأصبح هذا المكان الصغير منذ التسعينات من القرن العشرين أحد معاقل الجهاديين في اليمن، وبخاصة مع جيش عدن/أبين الذي شن العديد من العمليات وقام بخطف السيّاح. ويصعب التصور أن هذا المعسكر كان ما بين 1971 و1990 مركز التأهيل العسكري والأيديولوجي لمجموعة وديع حداد الذي اشتهر عالمياً بخطف الطائرات وأخذ وزراء خارجية منظمة الأوبيك رهائن في فيينا عام 1975[19]، وتدرّب في هذا المعسكر كل من الفينزويلي إيليش راميريز سانشيز الملقب بكارلوس، وفوساكو شيجنونو رئيسة الجيش الأحمر الياباني، وهاغوب هاغوبيان (واسمه الحقيق بدروس أوهانيسيان) مؤسس منظمة الجيش السري الأرمني، وعدد من الألمان التابعين لفصيل الجيش الأحمر، وحركة 2 حزيران، وعدد من الخلايا الثورية؛ ناهيك عن المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين، والأرتريين وبعض الإيطاليين (باستثناء الألوية الحمراء) والإيرانيين والأتراك والباسكيين والهولنديين والنيكارغويين والسلفادوريين...

ولم يكن باستطاعة المعسكر أن يستقبل للتدريب العسكري والسياسي إلا حوالي 40 شخصاً، وكان فيه النظام قاسياً، إذ كان وديع حداد رئيساً صارماً يحرص على الانضباط الشديد. ويقال إنه أسند المسؤولية لكارلوس خلال رحلة قام بها إلى بيروت ونيروبي[20]. وأورد هانس يواكيم كلين، وهو من عتاة حركة 2 حزيران وساهم في أخذ الرهائن في فيينا، شهادة مرّة تطعن بوديع حداد، الملقب بـ «أبو هاني». ونستطيع الظن، ولو دون تيقّن، أن وصف معسكر التدريب ينطبق على معسكر جعار، لأنه قرر عندما كتب مذكراته، وخوفاً من العمليات الانتقامية، ألاّ يذكر البلدان العربية التي استقبلته. قال:

«كان هناك فصل تام بين الزعماء والجنود. وكان أبو هاني بالتأكيد مسؤولاً عن الجميع. وكان ساكي ساعده الأيمن، بعد أن حيّد جهازُ الموساد في نيروبي أبا حنّفة وآخرين. وكان ساكي، فضلاً عن ذلك المسؤول عن المعسكر، ولكنه تخلّى عن هذه المسؤولية لمرؤوسيه، وهكذا لم يترتب عليه أن يأتي إلى هذا المعسكر غير المريح إلاّ مرّة كل يومين أو ثلاثة. وكانت في المعسكر أيضاً «مها» التي خطفت طائرة مع ليلى خالد، وكانت «حافظة أسرار ومرافقة» أبو هاني (هكذا كان لقبها الرسمي)، بالإضافة إلى «سوسو» بنت أخيها التي كانت تهتم بالجانب التجاري للمعسكر، بما فيه المصروفات التي كان يتعيّن عليها أن توقّع على بياناتها باسمها المستعار. وكان فيه أيضاً بعض نواب الزعماء. وكان المندبون السياسيون الذين يأتون إلى المعسكر أحياناً، يلتقون فقط بأبو هاني وبعض الأشخاص الآنفي الذكر. خلال الأشهر الثمانية عشر التي قضيتها هنا (وكان جلها داخل المعسكر)، حضرنا درساً سياسياً واحداً أعطاه للجنود

(19) أصيب وديع حداد بسرطان الدم، وتوفي في 28 آذار 1978 في إحدى مستشفيات برلين الشرقية.

(20) المعلومات المتعلقة بالمعسكر مأخوذة من كتاب غسان شربل: "أسرار الصندوق الأسود"، بيروت، دار رياض الريس، 2008.

أحد المندوبين السياسيين الذي قدم خصيصاً إلى المكان... القادة في... [لم يذكر اسم المعسكر عمداً]... كان أبو هاني في كل مكان ويتمتع في أغلب الأحيان بالمباهج التي يمكن أن تؤمنها العاصمة، كالذهاب إلى السينما وزيارة المرقص، والمشاركة في ولائم الفندق. وكان في جيبه ما لم يكن يمتلكه أي جندي: أي العملات ولم تعطَ هذه الامتيازات إلا لجوني ولي، وأعطيت جزئياً لزعماء فصيل الجيش الأحمر، ولزعماء الخلايا الثورية. ولم يحظَ باقي أعضاء حرب العصابات القادمين من ألمانيا الغربية والرفاق الفلسطينيون إلاّ ببعض الحقوق»[21].

وهكذا أصبحت عدن القاعدة اللوجستية للناشطين الألمان، بسبب العلاقات التي ربطتهم بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكان «التضامن الثوري» متفاوتاً مع المناضلين الألمان التابعين للخلايا الثورية. كان هؤلاء يقومون بعمليات إرهابية لصالح وديع حداد مقابل الحصول على الأسلحة والنقود والتدريب. وهكذا قتل العديد من الناشطين الألمان في عمليات خطف الطائرات. وكانت بيروت وبغداد تشكلان محطتين أخريين لتلك العلاقة القائمة بين الزبون ورب العمل أو بين المرتزق ومُصدِر الأوامر؛ ولكن عدن كانت تتمتع بمزايا أهم (لاسيما المزايا الدبلوماسية، بالنسبة لكارلوس خصوصاً)، فانعزالها وبُعدها عن خط الجبهة مع إسرائيل بالإضافة إلى الحماية السوفيتية جعلت منها معبداً نفيساً، لاسيما وأن دعمها للقضية الفلسطينية كان يحمل طابعاً عاطفياً (علاقات شخصية بينيّة) وتوجهاً راديكالياً (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين أكثر من فتح). وهكذا في عام 1972، أشادت حكومة اليمن الجنوبي بعملية نفذّها كومندوس تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وتم فيها «اختطاف» زورق حربي سريع من مرفأ عدن أُخذ ليقصف، قرب جزيرة بريم، ناقلة النفط كورال سي المتوجهة نحو إسرائيل.

يجب التصديق بأن المدينة وجدت وظيفتها كمحطة، ليس على صعيد التجارة الدولية، وإنما على صعيد نوع جديد متمثل بخطف الطائرات، الذي اختصت به الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين خلال سنوات 1970. فقد استقبل مطارها الطائرة الأولى في شباط 1972، عندما خطف مناضلو «المجال الخارجي»، طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا من مطار نيودلهي وأجبروها على الهبوط في عدن. فدفعت الحكومة الألمانية فدية قدرها 5 ملايين دولار، واستسلم الكومندوس للسلطات اليمنية التي لم تتأخر في إطلاق سراحهم. وبعد ذلك بسنتين اقتحم كومندوس مشترك من منظمة الجيش الأحمر الياباني والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين السفارة اليابانية في الكويت وخطفوا رهائن عديدين بينهم السفير، وانضمّوا إلى مجموعة أخرى فلسطينية يابانية قادمة من سنغافورة أخذت كرهائن عدداً من ركاب سفينة تنقل السيارات والركاب، ونقلتهم طائرة تابعة لشركة الخطوط اليابانية من الكويت إلى اليمن الجنوبي حيث اختفوا. ومع ذلك، طُرد من عدن مرتين خاطفو الرهائن المرتبطون بمجموعة وديع حداد. في عام

(21) Hans-Joachim Klein, *La mort mercenaire. Témoignage d'un ancien terroriste ouest - allemand*, Paris, Seuil, 1980, p. 268-270.

1974، اليابانيون الثلاثة الذين خطفوا رهينة من السفارة الفرنسية في لاهاي غادروا هولندا على متن طائرة توجهت إلى عدن، ولكن سلطات اليمن الجنوبي منعتهم من مغادرة الطائرة. فقبل السوريون باستقبال الطائرة. وفي تشرين الأول 1977 خطف كومندوس فلسطيني طائرة بوينغ تابعة لشركة لوفتهانزا تعمل على خط بالما في مايوركا - فرانكفورت، وطالب بإطلاق سجناء تابعين لفصيل الجيش الأحمر الألماني وفلسطينيين معتقلين في تركيا، وكان من المتوقع أن تحط الطائرة في عدن في نهاية المطاف. صحيح أنها حطت فيها، ولكن لم يسمح لها بالبقاء فأقلعت إلى مقاديشيو حيث هاجمتها القوات الخاصة الألمانية وقتل جميع مختطفي الرهائن، ماعدا اللبنانية سهيلة السايح. وكان هذا الخطفُ العمليةَ الأخيرة المدوية لوديع حداد، واستخدمت كمناسبة لجناح عبد الفتاح اسماعيل من الحزب الاشتراكي اليمني للإطاحة بسالم ربيع علي الذي سمح لوديع حداد بهبوط الطائرة في عدن[22] فأعدم عام 1978.

وكانت المدينة أيضاً ملجأ للمناضلين المطاردين في أوروبا أو في أماكن أخرى فوجدوا في اليمن الجنوبي غُفْلِيّة تعويضيّة أو خلوةً قصيرة قبل أن يغوصوا ثانية في العمل السري داخل بلدانهم. بعد أن تعرّض العديد من أعضاء الجيش الأحمر الياباني لعمليات تطهير دامية عام 1972 ولموجات من الاعتقالات على يد الشرطة، يقال إنهم عرّجوا على عدن.

شارك ألمانيان مع كارلوس في أخذ وزراء الأوبيك كرهائن في كانون الأول 1995، وتبنت منظمة أيلول الأسود تنفيذها ووضعت تحت مسؤولية اللبناني كمال خير بك. ويقال إن هذا الأخير التقى بكارلوس في عدن قبل العملية بشهر ولم يقبل المشاركة فيها إلاّ بعد موافقة وديع حداد[23]. وبعد العملية توقف هانس جواشيم كلين وكارلوس في الجزائر وليبيا ثم لاذا بعدن. وفي أحد البنوك في عدن سُلمت الفدية الباهظة التي طُلبت من إيران والسعودية عن وزيري النفط جمشيد أموزيغار وأحمد زكي اليماني. وتوّجت العملية باسم وديع حداد الذي استدعى كارلوس إلى دارته في خورمكسر كي يشرح له كارلوس لماذا خالف أوامره ولم يقتل الوزيرين الإيراني والسعودي، وألزمه من ثمّ بالالتحاق بمعسكر جعار.

ومن أصل ستة سجناء أطلق سراحهم مقابل تحرير الرهينة بيتر لورنز - وهو نائب عن الاتحاد المسيحي الديموقراطي، كانت قد خطفته حركة 2 حزيران في شهر شباط 1975- ذهب خمسة منهم إلى اليمن الجنوبي[24]، وهناك وجدوا فيرينا بيكر «الخطيبة السوداء»لحركة 2 حزيران التي التحقت بفصيل الجيش الأحمر RAF في عدن حيث حطت رحالها هناك في السنة نفسها قبل أن تسافر من جديد إلى ألمانيا عام 1977[25]. ووُجد في عدن

---

(22) غسان شربل، المرجع المذكور، ص126.

(23) غسان شربل، المرجع المذكور، ص228.

(24) Anne Steiner et Loic Debray, *RAF Guérilla urbaine en Europe occidentale*, Paris, Editions L'échappée, 2006, p. 60.

(25) أعفي عن فيرينا بيكر عام 1989، بعد 12 عاماً من الاعتقال، ولكنها في آذار 2010 اتهمت بقتل المدّعي العام بوباك (في 17 نيسان 1977).

مناضلون هاربون من أمثال بيتر يورغن بوك (من فصيل الجيش الأحمر) الذي شارك في خطف هانس مارتان شلير، رئيس نقابة أرباب العمل في ألمانيا الغربية في أيلول 1977. وتم إيقافه في يوغسلافيا في أيار 1978، فطرد إلى اليمن الجنوبي حيث بقي حتى نهاية 1999[26]. إلى عدن لجأ كارلوس بعد فشله في القبض على رهائن في عينتبه حيث اقتحم كومندوس إسرائيلي في حزيران 1976 طائرة إيرباص تابعة للخطوط الجوية الفرنسية كانت قد خطفتها مجموعة مشتركة من حركة 2 حزيران ومن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

بعد توحيد اليمن في أيار 1990، ولاسيما بعد هزيمة الانفصاليين التابعين للحزب الاشتراكي اليمني في تموز 1994، لم تعد عدن ملاذاً للقانطين الأمميين الذي تحوّلوا إلى مجرد مرتزقة متقاعدين في أغلب الأحيان. في عام 1991 طردت سوريا أعضاء مجموعة كارلوس إلى اليمن الجنوبي سابقاً ولكنهم عادوا إلى دمشق بسرعة فسُلّموا إلى ليبيا ثم إلى الأردن. ومن الأردن أرسل كارلوس عام 1993 إلى الخرطوم حيث اعتقلته الشرطة الفرنسية في السنة التالية[27]. وتوصّل يوهانس فاينريش، وهو عضو في الخلايا الثورية وكان الساعد الأيمن لكارلوس. توصل إلى البقاء في عدن لسنوات عديدة ولكنه اعتقل أخيراً في حزيران 1995. وتسليمه لألمانيا يدل بالتأكيد على نهاية هذه الحقبة.

أيام الحزب:

في عدن، عاصمة جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية سابقاً، تصاحب شعور بالانتماء المديني مع حنين غامض ومزدوج للفترة البريطانية ولفترة جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية. والحنين الأول مرادف للاحتلال والقمع وللازدهار الاقتصادي أيضاً وللحداثة الاجتماعية والسياسية وللاختلاط الديني، في حين أن الحنين الثاني الذي أطلقت عليه تسمية «أيام الحزب» يحيل إلى الأمن وسيادة نظام الدولة الذي لا ينازع ويحيل أيضاً إلى غياب الحريات الاقتصادية والسياسية وإلى الصراع الدامي على السلطة داخل الحزب الاشتراكي اليمني. وتاريخ 13 كانون الثاني 1986 في هذا الشأن هو تاريخ حاسم لأنه دلَّ على الانحسار المحتوم لجمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية. انطلاقاً من تلك الفترة، راحت نساء كثيرات يتحجّبن، وراح الرجال يعودون إلى الجوامع تكفيراً عن زندقة الطبقة الحاكمة وعن فسقها المفترض أو المؤكد.

بعد ذلك بعشرين سنة، أي في 13 كانون الثاني 2008، جمعت مظاهرة حاشدة عشرات الآلاف من الأشخاص في عدن لمحو آثار الشقاق وللإعلان عن وحدة سكان الجنوب وللمطالبة بإنهاء إجراءات التمييز التي

---

(26) آن ستينر ولويك دوبريه، الكتاب المذكور، ص131.

(27) Christoohe Chiclet, «L'adieu aux armes», *Confluences Méditerranée*, n 18, été 1996, P. 147-149.

يمارسها نظام صنعاء ضد سكان الجنوب. وسميت «تجمّع المصالحة» وانتهت بأعمال عنف أدت إلى سقوط العديد من الضحايا في أوساط الجيش والمتظاهرين. وشكلت هذه «المصالحة الوطنية» الكبرى هدنة لسلسلة من الاجتماعات القبلية والإقليمية التي انعقدت في الأشهر السابقة للتخلي عن عمليات الثأر. مع العلم أن الدولة في الفترة الاشتراكية (1967 - 1990) كانت قد قمعتها بشدة، ولكنها بزغت من جديد منذ قيام الوحدة.

أصبح أحد أشكال التراث السلبية في الفترة الاشتراكية المتمثلة بالمجازر بين الإخوة المتصارعين التي وقعت في 13 كانون الثاني 1986، أصبح للمفارقة رمزاً للاصطفاف والتعبئة لدى جزء من سكان المحافظات الجنوبية التي تستعيد الآن ذاكرة «أيام الحزب» وترى فيها مكوّناً أساسياً لفرادتها التاريخية والاجتماعية والثقافية. وبما أن كل ذاكرة هي ذاكرة انتقائية وجمعية أيضاً، فإنها قد تتغير بسرعة تغيّر مجرى الأحداث وميزان القوى. إن سنوات الاشتراكية في اليمن الجنوبي التي دامت ثلاثة وعشرين عاماً تشكل سجلاً ذاكرياً يتوسط ماضياً بعيداً لجنوب شبه الجزيرة العربية تحت الحماية البريطانية والعقدين الأخيرين من عمر اليمن الموحد الذي يبدو حاضره المقلقل وكأنه يعيد بعض الألق الجنيني لتلألؤ النجمة الحمراء ماضياً.